مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآيات قوله:

يُخبرُ تعالى عمَّا زُيِّنَ للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواعِ المَلاذِّ، من النساء والبنين. وبدأ بالنساء؛ لأنَّ الفتنةَ بهنَّ أشد، كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: « مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّساء » (٢) فأمَّا إذا كان القَصْدُ بهنَّ الإعفافُ وكثرةُ الأولاد، فهذا مطلوبٌ مرغوبٌ فيه، مندوبٌ إليه، كما وردت الأحاديثُ بالترغيب في التزويج، والاستكثار منه، وإنَّ « خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ أَكْثَرُهَا نِسَاءً »(٣)، وقوله ﷺ: « مَا اسْتَفَادَ الْمُؤْمِنُ

(١) آل عمران: ١٤- ١٧.
(٢) البخاري: كتاب النكاح، باب ما يُتقى من شؤم المرأة، رقم ٤٧٠٦.
(٣) البخاري: كتاب النكاح، باب كثرة النساء، رقم ٤٦٨١.

بَعْدَ تَقْوَى اللَّهِ خَيْرًا لَهُ مِنْ زَوْجَةٍ صَالِحَةٍ، إِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ، وَإِنْ أَقْسَمَ عَلَيْهَا أَبَرَّتْهُ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا نَصَحَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ » (١)

ثم قال: وحُبُّ البنين تارةً يكون للتفاخر والزينة، فهو داخل في هذا ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾ وتارةً يكون لتكثير النسْل، وتكثير أُمَّةِ محمدٍ ﷺ ممَّن يعبد الله وحده لا شريك له. فهذا محمودٌ ممدوحٌ، كما ثبت في الحديث: « تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلُودَ؛ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ » (٢)

وحُبُّ المال - كذلك - تارةً يكونُ للفَخْر والخُيَلاء والتكبُّر على الضعفاء، والتجبُّر على الفقراء، فهذا مذمومٌ، وتارةً يكون للنفقة في القُرُباتِ وصلةِ الأرحام والقَرَابات، ووجوه البرِّ والطاعات، فهذا ممدوحٌ محمودٌ شرعًا.

ثم تحدث ابنُ كثير عمَّا زُيِّن للناس من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسوَّمة، والأنعام والحرث، وقال: إنما هذا زهرةُ الحياة الدنيا وزينتُها الفانية الزائلة ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ أي: حُسْنُ المرجع والثواب.

أخي المسلم: إنَّ النفسَ - وقد زُيِّنَ لها ما زُيِّن من حُبِّ الشهوات - لم تُتْرَك ضَيَاعاً فيما تَهْوَى وتُحِب، وإنما أعان الله ورَحِمها بما أرسل من رسولٍ، وأنزل من كتاب؛ لتجعل ما زُيِّنَ لها - مما يفنى - سبيلاً للفوز بما يدوم ويَبقى، بلا حَرَجٍ أو عُسر.

إنَّ صفات النفس وما تكونُ عليه من تُقَىً هو الذي يُعينها على أن تجعلَ ما يفنى

---

(١) ابن ماجة: كتاب النكاح، باب أفضل النساء، رقم ١٨٤٧.

(٢) أبو داود: كتاب النكاح، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء، رقم ١٧٥٤.

سبيلاً لما يبقى، فلا يشغلها فانٍ عن باقٍ، ولا يُعميها حُبٌّ لدُنياها عن مصيرها في أُخراها.

النفسُ بصفاتها هي التي تجعلُ من متاع الدنيا عَوْناً لها على الخير والبِرِّ، والفلاح والفوز، فتحيا في دُنياها - بما تشتهي وتُحب - حياةً طيبةً، وتفوز في أُخراها بجناتٍ ورضوانٍ من الله أكبر، دون تعارضٍ بين التمتع في الدنيا بالطيبات، والفوز في الآخرة بالجنات.

من هنا أُمرَ الرسولُ ﷺ أن يُبَلِّغَ الناسَ، وأن يُخاطبهم بآياتٍ بيِّنات؛ ليجعلوا من متاعِ دُنياهم نعيماً مُقيماً في أُخراهم، وإلاَّ خَسِروا دُنياهم وأُخراهم. وذلك هو الخُسران المبين.

﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ﴾ قُلْ - يا محمد - للناس: أؤُنَبئكم بخيرٍ ممَّا زُيِّنَ للناس في هذه الحياة الدنيا، مما هو زائلٌ لا محالة ؟

﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ ﴾ إنَّ الذين اتَّقَوا لم يُحرَموا من متاع الحياة الدنيا، وإنما أَحرزوا التقوى فطَابت دُنياهم، وسَلِمَت أُخراهم.

إنَّ الذين اتَّقَوا رَأَوْا - بنورِ ربِّهم - حقائقَ الأشياء، فلم يُعطوا الذَّاهبَ صفات الباقي، ولم تخدعهم زينةُ الدنيا عن حقيقتها، ولم تشغلهم زهرتُها عن فتنتها، وإنما سَعَوا فيها سَعْيَ الآخرة، فكان هذا دعاؤهم، وتلك صفاتهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ (١)

وَصَفَ الله تعالى عباده المتقـــين الذين وعدهم الثوابَ الجزيل، فقال جَلَّ شأنُه:

(١) آل عمران: ١٦، ١٧.

﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا ﴾ أي: بِكَ وبكتابك وبرسولك، ﴿ فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ أي: بإيماننا بك وبما شرعتـــه لنا، فاغفر ذنوبنا وتقصيرنا، بفضلك ورحمتك، ﴿ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾

ثم قال الله تعالى: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أي: في قيامهم بالطاعـــات، وتَرْكهم المحرَّمـــات، ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فيما أخبروا به من إيمانهم، ﴿ وَٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ المُطيعين لله، الخاضعين له، ﴿ وَٱلْمُنفِقِينَ ﴾ من أموالهم في جميع ما أُمروا به من الطاعات، وصلة الأرحام والقُربات، ومواساةِ ذوي الحاجات، ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ دَلَّ على فضيلة الاستغفار وقت السَّحَر، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: « يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ » (١)

أخي المسلم: تلك هي الصفات، صفاتُ الخير في دُنياك وأُخراك، فاسْتَمْسِك بها، واعلمْ أنَّ ما زُيِّنَ لك من حُبِّ الشهوات أنت به مُمْتَحَنٌ ومُخْتَبَرٌ، ويمكنك أن تجعله - بهذه الصفات - زادًا لأُخراك، فابتَغِ فيما آتاك الله الدارَ الآخرةَ، ولا تَنْسَ نصيبَك من الدنيا، وأحسِنْ كما أحسَنَ اللهُ إليك.

(١) البخاري: كتاب الجمعة، باب الدعاء من الصلاة في آخر الليل، رقم ١٠٧٧.

مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآية قوله:

يُخبرُ الله تعالى إخباراً عاماً - يَعُمُّ الخليقةَ - بأنَّ كُلَّ نَفْسٍ ذَائقةُ الموت، كقوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢)

فهو تعالى وحْدَه الذي لا يموت، والجنُّ والإنسُ يموتون، وكذلك الملائكةُ وحملةُ العرش، وينفردُ الواحدُ الأحدُ القهارُ بالديمومةِ والبقاء، فيكون آخراً كما كان أوَّلاً.

وهذه الآيةُ فيها تَعْزِيَةٌ لجميع الناس؛ فإنه لا يبقى أحدٌ على وجه الأرض حتى يموت، فإذا انقضت المدةُ، وفرغت النطفةُ التي قَدَّر الله من صُلبِ آدم، وانتهت البرية، أقامَ الله القيامةَ، وجازى الخلائقَ بأعمالها، جليلِها وحقيرِها، قليلِها وكثيرِها، كبيرِها وصغيرِها، فلا يظلم أحداً مثقالَ ذرَّةٍ، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ أي: مَن جُنِّبَ النارَ ونَجَا

(١) آل عمران: ١٨٥.
(٢) الرحمن: ٢٦، ٢٧.

منها، وأُدخِلَ الجنةَ، فقد فازَ كُلَّ الفوز.

وقد جاءَ في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: « إِنَّ مَوْضِعَ سَوْطٍ [1] فِي الْجَنَّةِ لَخَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا. اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ » [2]

وروى الإمامُ أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنْ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ » [3]

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ تصغيرٌ لشأن الدنيا، وتحقيرٌ لأمرها، وأنها دنيئةٌ فانيةٌ، قليلةٌ زائلةٌ، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ [4]، وقال: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [5]، وفي الحديث الشريف: « وَاللَّهِ مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ » [6]

---

(١) أُريدَ به قَدْرٌ قليلٌ منْهَا، أوْ مقْدَارُ موْضعِه فيهَا.

(٢) الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة آل عمران، رقم ٢٩٣٩، وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٣) مسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، رقم ٣٤٣١.

(٤) الأعلى: ١٦، ١٧.

(٥) القصص: ٦٠.

(٦) مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم ٥١٠١.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ قال: هي متاعٌ متروك، أوشكت - والله الذي لا إله إلا هو - أن تَضْمَحلَّ عن أهلها، فخُذوا من هذا المتاع طاعةَ ربِّكم إن استطعتم، ولا قوة إلا بالله.

أخي المسلم: ذاك بعضُ ما ذكره ابنُ كثيرٍ في تفسير هذه الآية ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾

فتدبَّر هذه الآية؛ لتَزِنَ أمورَك كُلَّها بميزانِ الحق، لا بما تُحِبُّ وتَهوى.

زِنْ أمورَك كُلَّها بالنظر إلى العواقب - وقد علمتَ ما هو خيرٌ لك وأبقى - قبل فوات الأوان، واعلَم أنك مُمْتَحَنٌ بدُنياك، فلا تجعلها غايتك ومبتغَاك؛ فإن من الرُّشْدِ أن تجعلها سبيلاً للفوزِ في أُخراك ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾، ولذا فإن الله تعالى يعجَبُ من سائلٍ يسألُ غير الجنة، ومن مُتعوِّذٍ يتعوَّذُ من غير النار ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾[1]

أخي المسلم: إن القرآنَ الكريمَ يُبصِّرك بما يجبُ أن تكون عليه وأنت تعبُر دُنياك إلى دار القرار، فاهْتَدِ به في جميعِ أمرك يَهْدِكَ للتي هي أقوم، وتدبَّر ما تتلوه أو يُتلَى عليك؛ ليسلم قلبُك من الشبهات والشهوات؛ إذ لا ينفعك عند ربِّك إلا سلامةُ قلبك

(١) البقرة: من الآية ٢٠١.

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ (١)

وفي مصارع السابقين والغابرين ذِكرى لمن كان له قلبٌ، والذكرى تنفع المؤمنين.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٢)

واعلم أن القلبَ السليم هو الذي عرف الحقَّ واتبعه، وعرف الباطلَ واجتنبه، فإنْ كنتَ كذلك فاحمد الله، واسأله الثباتَ والمزيد من فضله ورحمته، وإنْ كنتَ غير ذلك فجاهِدْ نفسَك، وحاسبها قبل أن تُحاسَب، وعاونها بصحبة الأخيار الذين يُذكِّرونك إذا نسيتَ، ويُبصِّرونك إذا جَهِلت، واحذَرْ أن تكون مع أولئك الذين استحوذَ عليهم الشيطان فغرَّهم بدُنياهم، وأنساهم ذِكرَ الله.

واعرف ما لكَ من دُنياك، فليس لك « مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ » (٣)

ولا ترغَبْ في دُنياك عن آخرتك؛ فإن دُنياك - رَضِيتَ أو كَرِهْتَ - ذاهبةٌ فانيةٌ، فخُذْ خيرَ ما فيها للآخرةِ الباقية، وخيرُ ما فيها طاعةُ ربِّك، فبها تُصلح دُنياك، وتُصلح آخرتك.

اللهم أصلح لنا دُنيانا التي فيها معاشُنا، وأصلح لنا آخرتَنا التي فيها معادُنا، واجعل الحياةَ زيادةً لنا من كل خيرٍ، واجعل الموتَ راحةً لنا من كل شرٍ.

---

(١) الشعراء: ٨٨، ٨٩.

(٢) ق: ٣٧.

(٣) مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم ٥٢٥٨.

مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآيات قوله:

يقول تعالى لا تنظر إلى هؤلاء الكُفَّار المُترَفين، وما هم فيه من النِّعمة والغِبطة والسرور؛ فعمَّا قليل يزول هذا كُلُّه عنهم، ويُصبحون مُرتَهَنون بأعمالهم السيئة، فإنما نَمُدُّ لهم فيما هم فيه استدراجاً، وجميع ما هُم فيه متاعٌ قليل، ثم مأواهم جهنم وبئس المصير.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ فَلَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٤﴾ ﴾ (٢)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (٣)، وقوله تعالى: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٤)، وقولـــه تعالى:

---

(١) آل عمران: ١٩٦- ١٩٨.
(٢) غافر: من الآية ٤.
(٣) يونس: ٦٩، ٧٠.
(٤) لقمان: ٢٤.

﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [1] أي قليلاً، وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [2]

ولما ذَكَرَ حال الكفار في الدنيا، وذَكَرَ أن مآلهم النار، قال بعده: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾

عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُما عن النبي ﷺ قال: « إِنَّمَا سَمَّاهُمُ اللَّهُ أَبْرَاراً؛ لأَنَّهُمْ بَرُّوا الآبَاءَ وَالأَبْنَاءَ، فكَمَا أَنَّ لِوَالِدِكَ عَلَيْكَ حَقّاً، كَذَلِكَ لِوَلَدِكَ عَلَيْكَ حَقّاً » [3]

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: « ما من نفسٍ - بَرَّةٍ أو فاجرةٍ - إلاَّ والموتُ خيرٌ لها؛ لئن كان بَرًّا لقد قال الله ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾، ولئن كان فاجراً، لقد قال الله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [4] » [5]

أخي المسلم: ذاك ما ذكره ابنُ كثيرٍ في تفسير هذه الآيات: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ

---

(١) الطارق: ١٧.
(٢) القصص: ٦١.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم: ٣١٧/١.
(٤) آل عمران: ١٧٨.
(٥) فتح القدير: ٦٠٨/١.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ ولا شكَّ أنَّ القرآن الكريم - وهو يُذكِّرُ ويُبَصِّرُ - يُرينا دلالةَ ما يُبصِّرُ به ويُذكِّرُ في واقعٍ؛ فها هي الأجيالُ تَفِدُ وتذهبُ، ويُستَدْرَج مَن يُستَدْرَج ثم يهلك، ويُمْلَى لِمَن يُمْلَى له ثم يُؤخَذ. وتبقى الآياتُ - في ثباتها - تُعطِي تبصرتها ودَلالتها لكل جيل ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ﴾ (١)

والآياتُ البيِّناتُ - وهي تُرينا ما يذهب وما يبقى - تُرشدنا إلى ما يجب أن نكونَ عليه من الاستمساك بالحقِّ، وعدم الاغترارِ بالباطل؛ فإنَّ ما يتزيَّنُ به الباطلُ عَرَضٌ لا يدوم، وما يدعو إليه الحقُّ خيرٌ باقٍ لا يزول، ومَن لم يستمسك باحق ويعتصم به تعصِفُ به أهواءُ الباطل، ويأخذه بزينته المتاعُ الزائل ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾

وهذه الحقيقة جديرةٌ أنت تُستَوْعَب؛ حتى لا يُفتَنَ أحدٌ بِمَن يُملِي له، ويُستدْرَجُ وهو غافل عما يصيرُ إليه ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ (٢)، ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) الأنفال: من الآية ٤٢.
(٢) فاطر: من الآية ٤٣.

فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾ ﴾ (١)

ومَن تدبَّر سُنَن الله لم تشغله الرغائبُ عن العواقب، ولم يصرفه عن الحقِّ سرابٌ خادع. والحقُّ باقٍ، والباطلُ ذاهبٌ، فَلْنَزِن الأشياءَ بميزانِ ربِّنا، ولنكُن على حَذَرٍ من اتباع الأهواء والشهوات؛ حتى لا نُؤخَذَ بالزينة عن القيمة، ونُصرفَ بحُبِّ الشهوات عن الباقيات.

وجديرٌ بمَنْ يمشي في الناس بنورِ ربِّه ألاَّ يُغَرَّ أو يُخدَعَ بما يُستَدْرَجُ به أهلُ الكفر والضلال، وأن يصبرَ نفسَه مع الذين يدعون ربَّهم بالغداة والعَشِيِّ؛ يريدون وجهه، وأن يتدبَّرَ ما خاطب اللهُ به نبيَّه، وأن يتَّبِعَ صراطه المستقيم ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (٢)

أخي المسلم: الإسلامُ لا ينهى عن الزينة في حدود الطيبات، ولكنه ينهى أن يُوزَنَ بها الناسُ؛ فإنَّ قيمةَ الناس في إيمانهم وأخلاقهم، لا في زينتهم ومتاعهم؛ وإن واحداً من هؤلاء قد يكون خيراً من ملء الأرض من أولئك ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٣٩﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٣٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿٣٨﴾ ﴾

---

(١) محمد: ١٠.

(٢) الكهف: ٢٨.